سؤال المنهج وإنتاج المعرفة السوسيولوجية في المغرب
قراءة إبستمولوجية معمّقة في كتاب:
"قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي" لمحمد جسوس

الحسن باكريم
صحافي – باحث في الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية –أكادير
جامعة ابن زهر
المغرب

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة إبستمولوجية موسّعة وعميقة في كتاب *قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي* لمحمد جسوس، باعتباره أحد النصوص التأسيسية في مسار تشكّل الوعي المنهجي داخل الحقل السوسيولوجي المغربي.

تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن جسوس لم يكن بصدد تقديم عرض تقني لأدوات البحث، بل كان يؤسس لموقف معرفي نقدي يعيد تعريف العلاقة بين النظرية والميدان، وبين المرجعيات السوسيولوجية الكلاسيكية والسياق المغربي، وبين الكونية العلمية وضرورة توطين المفاهيم.

تعتمد الدراسة مقاربة تحليلية–نقدية تستحضر تاريخ تشكل علم الاجتماع بالمغرب، وتضع أطروحات جسوس في حوار مع النقاشات الإبستمولوجية الكلاسيكية والمعاصرة (دوركهايم، فيبر، بورديو، آرون، سانتوس). كما تسعى إلى إبراز راهنية الكتاب في ضوء التحولات الرقمية وتطور دراسات الإعلام والهجرة، بما يؤكد استمرار سؤال المنهج باعتباره سؤالاً مركزياً في إنتاج المعرفة الاجتماعية.

مقدمة: في معنى العودة إلى النصوص المؤسسة

في الحقول المعرفية التي ما تزال في طور التراكم، تمثل العودة إلى النصوص المؤسسة فعلاً إبستمولوجياً لا مجرد ممارسة احتفالية. فالعودة إلى كتاب *قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي* لا تعني استذكار تجربة أكاديمية فقط، بل تعني مساءلة سؤال المنهج ذاته داخل السياق المغربي.

لقد ظل سؤال المنهج في العلوم الاجتماعية سؤالاً مركزيًا منذ لحظة التأسيس الكلاسيكي لعلم الاجتماع. فالتوتر بين التفسير والفهم، بين الموضوعية والذاتية، بين القانوني والتأويلي، لم يكن مجرد خلاف تقني، بل تعبيرًا عن اختلاف في تصور طبيعة الظاهرة الاجتماعية نفسها.

في هذا الأفق، يمكن اعتبار إسهام محمد جسوس امتدادًا مغربيًا للنقاش الإبستمولوجي الكلاسيكي، لكن داخل شروط تاريخية واجتماعية مختلفة. إنه ينقل السؤال من مجرد نقاش نظري حول المناهج إلى مساءلة شروط إنتاج المعرفة في سياق ما بعد كولونيالي.

أولاً: المنهج في تاريخ علم الاجتماع — الإشكال الكلاسيكي

1.1 تأسيس الموضوعية : دوركهايم ونموذج الوقائع الاجتماعية

مثّل إميل دوركهايم لحظة حاسمة في تأسيس المنهج السوسيولوجي. فقد دعا إلى التعامل مع الوقائع الاجتماعية بوصفها "أشياء" (Durkheim, 1895/1988)، أي كيانات خارجية عن الوعي الفردي، تفرض نفسها على الأفراد بقوة الإكراه.

هذا التصور كان محاولة لبناء علم اجتماع علمي، مستقل عن الفلسفة الأخلاقية والتأملات المجردة. فالمنهج هنا يقوم على:

- تعريف موضوع مستقل
- اعتماد قواعد ملاحظة صارمة
- البحث عن علاقات سببية

غير أن هذا النموذج أثار نقدًا لاحقًا، خاصة فيما يتعلق بتجاهله للبعد الذاتي والمعنوي للفعل الاجتماعي.

1.2 الفهم والتأويل : فيبر ومنعطف المعنى

جاء ماكس فيبر ليضيف بُعدًا جديدًا إلى النقاش، مؤكدًا أن علم الاجتماع يجب أن يكون علمًا للفعل الاجتماعي، وأن الفهم (Verstehen)عنصر أساسي في التحليل.(Weber, 1922/1978)

الظاهرة الاجتماعية ليست فقط بنية خارجية، بل هي فعل مشبع بالمعنى. ومن ثم فإن المنهج يجب أن يدمج بين:

- التفسير السببي
- الفهم التأويلي

هذا التوتر بين دوركهايم وفيبر سيشكل الخلفية النظرية التي يمكن قراءة جسوس في ضوئها.

1.3 التعدد النظري كخاصية بنيوية

يشير رايمون آرون إلى أن تاريخ الفكر السوسيولوجي لا يمكن اختزاله في خط تطوري واحد، بل هو تعدد متوازي لمقاربات .(Aron, 1967)فالوضعية، والماركسية، والبنيوية، والتفاعلية، كلها تعكس زوايا مختلفة لرؤية المجتمع.

هنا يتبلور سؤال: هل يمكن الحديث عن منهج سوسيولوجي واحد؟ أم أن التعدد النظري يفرض تعددًا منهجيًا؟

هذا السؤال سيكون في صلب أطروحة جسوس.

ثانياً: السياق المغربي — المعرفة بين الإرث الكولونيالي وبناء الحقل

2.1 المعرفة الكولونيالية وإنتاج صورة المجتمع

ارتبطت البدايات الأولى للدراسات السوسيولوجية في المغرب بالمشروع الاستعماري. فقد كانت المعرفة جزءًا من جهاز السلطة، هدفها الفهم من أجل التحكم.(Hammoudi, 2000)

هذا الإرث خلق إشكالًا مزدوجًا بعد الاستقلال:

- كيف يمكن التخلص من الوظيفة الكولونيالية للمعرفة؟
- وكيف يمكن في الوقت نفسه الاستفادة من الأدوات العلمية المتراكمة؟

2.2 الجامعة المغربية وبناء الحقل السوسيولوجي

شهدت سبعينيات القرن الماضي بروز جيل من الباحثين المغاربة الذين سعوا إلى تأسيس تقليد سوسيولوجي وطني. وكان الاهتمام بالمنهج تعبيرًا عن وعي بأن أزمة السوسيولوجيا ليست أزمة موضوعات، بل أزمة أدوات تحليل.

في هذا السياق يأتي كتاب *قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي* بوصفه محاولة لتأطير تكوين الباحثين، لكن أيضًا لبناء ثقافة إبستمولوجية نقدية.

ثالثاً: أطروحة جسوس — المنهج كوعي نقدي

3.1 رفض الاختزال التقني

من أهم ما يميز تصور جسوس أنه يرفض اختزال المنهج في الأدوات الإجرائية. فالمنهج ليس مجرد استمارة أو مقابلة أو تحليل إحصائي.

إنه يبدأ بـــ:

- تحديد الإشكالية
- بناء الموضوع
- صياغة الفرضيات
- اختيار المقاربة المناسبة

هذا التصور يتقاطع مع ما ذهب إليه بورديو حول ضرورة "بناء الموضوع" قبل دراسته.(Bourdieu et al., 1968)

3.2 التعدد النظري بوصفه شرطًا للفهم

يرى جسوس أن علم الاجتماع لا يمكن أن يقوم على مرجعية أحادية. فالظاهرة الاجتماعية مركبة، ولا يمكن مقاربتها من زاوية واحدة.

وهنا يتبنى موقفًا إبستمولوجيًا نقديًا يقوم على:

- الاعتراف بتعدد المقاربات
- رفض الدوغمائية النظرية

- البحث عن تكامل منهجي

هذا الموقف يعكس وعيًا بأن المنهج ليس حياديًا، بل مرتبطًا باختيارات نظرية.

رابعاً: بناء الموضوع السوسيولوجي — قلب العملية البحثية

4.1 الموضوع ليس معطى جاهزًا

من الأخطاء الشائعة في البحث الاجتماعي التعامل مع الموضوع باعتباره معطىً بديهيًا. لكن جسوس يؤكد أن الموضوع يُبنى.

فمثلاً:

- "الهجرة" ليست مجرد انتقال جغرافي.
- "الإعلام" ليس مجرد مؤسسة.
- "الأسرة" ليست وحدة ثابتة.

كل هذه المفاهيم تحتاج إلى إعادة بناء نظري وفق زاوية التحليل.

4.2 الإشكالية كبنية معرفية

الإشكالية ليست سؤالاً عابرًا، بل بنية معرفية تحدد مسار البحث. إنها تحدد:

- ماذا نبحث؟
- لماذا نبحث؟
- من أي زاوية نبحث؟

هنا يظهر البعد الإبستمولوجي العميق لطرح جسوس.

خامساً: العلاقة بين النظرية والميدان — جدلية الاختبار

5.1 الميدان ليس تطبيقًا

يؤكد جسوس أن البحث الميداني ليس تطبيقًا للنظرية، بل اختبارًا لها. فالواقع قد يُكذّب الفرضيات أو يعيد صياغتها.

هذا الطرح ينسجم مع التقاليد السوسيولوجية التي ترى في البحث التجريبي لحظة مراجعة مستمرة للنظرية.

5.2 التكامل بين الكمي والكيفي

لم يقع جسوس في ثنائية كمي/كيفي. بل دعا إلى التكامل بينهما. وهذا ما تؤكده الدراسات المعاصرة التي ترى أن الظواهر المعقدة تحتاج إلى أدوات متعددة.(Castles et al., 2014)

خاتمة الجزء الأول

يتضح من التحليل السابق أن كتاب *قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي* ليس كتابًا تقنيًا، بل مشروعًا إبستمولوجيًا يسعى إلى:

- إعادة تعريف المنهج
- بناء وعي نقدي

- تأصيل تقليد سوسيولوجي مغربي

لكن هذا لا يكفي لفهم عمق المشروع. إذ يجب الانتقال إلى تحليل:

- إشكالية توطين المفاهيم
- نقد المركزية المعرفية
- المقارنة المعمقة مع بورديو
- راهنية التصور في زمن الرقمنة
- البعد الأخلاقي في المنهج

سادساً: توطين المفاهيم وإشكالية الكونية العلمية

6.1بين الكونية والخصوصية : مأزق العلوم الاجتماعية في الجنوب

من الإشكالات المركزية التي يثيرها كتاب *قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي*، وإن بشكل غير تصريحي دائمًا، مسألة توطين المفاهيم. فالعلوم الاجتماعية نشأت في سياق أوروبي محدد، تشكّل ضمن شروط تاريخية مرتبطة بالثورة الصناعية، ونشوء الدولة الحديثة، والتحولات الرأسمالية. وبالتالي فإن المفاهيم التي بلورها الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي (كالطبقة، العقلنة، التضامن، الحداثة) كانت استجابة لإشكالات ذلك السياق.

لكن نقل هذه المفاهيم إلى سياقات مغايرة — كالسياق المغربي — يطرح سؤالًا مزدوجًا:

1. هل تمتلك هذه المفاهيم صلاحية تفسيرية كونية؟
2. أم أنها مشروطة بسياق إنتاجها؟

هنا يتقاطع تصور جسوس مع النقاش المعاصر حول "إبستمولوجيات الجنوب"، كما بلورها بوافينتورا دو سوزا سانتوس (Santos, 2014)، الذي انتقد المركزية الأوروبية في إنتاج المعرفة، ودعا إلى الاعتراف بتعدد أنماط العقلانية.

6.2 موقف جسوس : لا رفض ولا تبعية

لا يدعو جسوس إلى قطيعة راديكالية مع التراث السوسيولوجي الغربي، كما لا يدعو إلى تبعية غير نقدية. بل يتبنى موقفًا وسطيًا يقوم على:

- استيعاب المرجعيات النظرية
- مساءلة شروط إنتاجها
- اختبارها ميدانيًا
- إعادة صياغتها وفق السياق المحلي

هذا الموقف يتسم بنضج إبستمولوجي، لأنه يرفض ثنائية الانغلاق/الذوبان، ويؤسس لما يمكن تسميته بـ "الكونية النقدية."

6.3 مثال تطبيقي : مفهوم الطبقة في السياق المغربي

في السياق الأوروبي، ارتبط مفهوم الطبقة بتشكل البرجوازية والبروليتاريا داخل نمط إنتاج صناعي. لكن في السياق المغربي، حيث تتداخل أنماط اقتصادية متعددة (تقليدية، ريفية، تجارية، خدمية، مهاجرة)، يصبح المفهوم بحاجة إلى إعادة صياغة.

وفق تصور جسوس، لا يمكن إسقاط المفهوم كما هو، بل يجب إعادة بنائه انطلاقًا من:

- بنية الاقتصاد المحلي
- أنماط التضامن التقليدي
- التحولات المرتبطة بالهجرة
- أثر الدولة الحديثة

وهذا يعكس فهمًا عميقًا للمنهج بوصفه عملية إعادة بناء للمفاهيم، لا مجرد استعمال جاهز لها.

سابعاً: مقارنة معمّقة بين جسوس وبورديو — البناء، القطيعة، والعنف الرمزي

7.1 القطيعة الإبستمولوجية

في كتاب *Le métier de sociologue*، شدد بيير بورديو على ضرورة القطيعة مع المعرفة العامية (Bourdieu et al., 1968). فالباحث مطالب بتجاوز التصورات المسبقة وبناء موضوعه علميًا.

يتقاطع جسوس مع هذا الطرح في تأكيده على ضرورة الانتقال من الحس المشترك إلى الإشكالية العلمية. لكنه يختلف عنه في درجة التنظير؛ فجسوس يكتب في سياق بيداغوجي موجّه للطلبة، بينما يشتغل بورديو في أفق تنظيري أكثر تعقيدًا.

7.2 العنف الرمزي وبناء الموضوع

يرى بورديو أن الحقول الاجتماعية تتضمن علاقات قوة رمزية، وأن الباحث نفسه ليس خارج هذه البنية. وهذا يطرح سؤال reflexivity أو "الانعكاسية."

رغم أن جسوس لا يستعمل المصطلح صراحة، فإن تأكيده على الوعي بشروط إنتاج المعرفة يقترب من هذا التصور. فالمنهج عنده ليس حياديًا، بل مشروطًا بسياق اجتماعي وتاريخي.

7.3 حدود المقارنة

يمكن القول إن جسوس يقدّم مشروعًا إبستمولوجيًا "مبسّطًا تأسيسيًا"، في حين أن بورديو يقدّم مشروعًا "نسقيًا نقديًا". غير أن كليهما يشتركان في:

- رفض العفوية المنهجية
- ضرورة بناء الموضوع
- الوعي بالنظرية كإطار موجّه للبحث

ثامناً: أخلاقيات المنهج — البعد المسكوت عنه

8.1 المنهج كالتزام أخلاقي

من النقاط التي تستحق إبرازًا أعمق في قراءة كتاب جسوس، البعد الأخلاقي للمنهج. فاختيار الموضوع، وصياغة الإشكالية، والتعامل مع المبحوثين، كلها قرارات تحمل أبعادًا أخلاقية.

المنهج ليس فقط أداة معرفة، بل أيضًا ممارسة سلطة رمزية. فالطريقة التي نُمثّل بها الفاعلين الاجتماعيين قد تعيد إنتاج صور نمطية أو تكسرها.

8.2 البحث في الهجرة : مثال على التعقيد الأخلاقي

دراسة الهجرة، مثلاً، تتضمن التعامل مع فئات هشة، وحكايات شخصية، وتجارب قد تكون مؤلمة. وهنا يصبح المنهج مسؤولية أخلاقية:

- احترام السرية
- تجنب الاستغلال الرمزي
- تمكين المبحوثين من التعبير عن ذواتهم

هذا البعد الأخلاقي يعمّق فهمنا لمشروع جسوس، لأنه يربط بين المنهج والعلاقة بالواقع.

تاسعاً: راهنية التصور المنهجي في زمن الرقمنة

9.1 تحول مفهوم الميدان

مع التحول الرقمي، لم يعد الميدان جغرافيًا فقط. بل أصبح يشمل:

- الفضاءات الافتراضية
- الشبكات الاجتماعية
- المنصات الإعلامية الرقمية

هذا يطرح سؤالًا: كيف نبني موضوعًا في فضاء غير مادي؟

وفق تصور جسوس، الإجابة لا تكمن في تغيير الأدوات فقط، بل في إعادة صياغة الإشكالية.

9.2 الإعلام الرقمي والهجرة العابرة للحدود

في دراسات الإعلام والهجرة، يمكن ملاحظة:

- تشكل مجتمعات افتراضية للمهاجرين
- إعادة إنتاج الهوية عبر المنصات الرقمية
- تداول تمثلات نمطية في الخطاب الإعلامي

هذه الظواهر تتطلب مقاربة مركبة تجمع بين:

- تحليل المضمون
- تحليل الخطاب
- الإثنوغرافيا الرقمية
- المقابلات المتعمقة

وهذا ينسجم تمامًا مع دعوة جسوس إلى التكامل المنهجي.

عاشراً: تركيب إبستمولوجي — نحو سوسيولوجيا نقدية مغربية

يمكن تلخيص إسهام جسوس في أربعة محاور كبرى:

1. **تأصيل التعدد النظري**

الاعتراف بشرعية المقاربات المتعددة.

2. **إعادة تعريف المنهج**

الانتقال من التقنية إلى بناء الإشكالية.

3. **مركزية الميدان**

اختبار المفاهيم داخل الواقع.

4. **توطين المعرفة**

مساءلة صلاحية المفاهيم في السياق المحلي.

هذا المشروع لا يدّعي تأسيس مدرسة سوسيولوجية مغربية مستقلة تمامًا، لكنه يضع أسس وعي نقدي يسمح بتراكم معرفي متجذر في الواقع.

خاتمة عامة موسّعة

تكشف القراءة المعمقة لكتاب *قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي* أن محمد جسوس لم يكن بصدد تأليف دليل منهجي بالمعنى التقني، بل كان يؤسس لوعي إبستمولوجي داخل الحقل الجامعي المغربي. لقد أعاد تعريف المنهج بوصفه بناءً نظريًا، ودافع عن التعددية، وربط بين النظرية والميدان، ونبّه إلى ضرورة توطين المفاهيم.

إن راهنية هذا العمل تتجلى اليوم في ظل التحولات الرقمية، وتنامي الدراسات العابرة للتخصصات، وتصاعد النقاش حول إنتاج المعرفة في الجنوب. فالمنهج يظل حجر الزاوية في كل مشروع علمي جاد، والعودة إلى نصوص التأسيس ليست حنينًا إلى الماضي، بل استثمارًا في المستقبل.

إن استعادة مشروع جسوس اليوم تمثل دعوة إلى:

- تعميق الثقافة الإبستمولوجية لدى الباحثين الشباب
- تجاوز الاختزال التقني في التكوين الجامعي
- بناء سوسيولوجيا نقدية مغربية منفتحة وواعية بسياقها

وبذلك يظل سؤال المنهج سؤالاً مفتوحًا، متجددًا، وشرطًا لأي إنتاج معرفي رصين.

المراجع والمصادر:

- محاضرات "جسوس، محمد".. "قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي" تنسيق نجيب الخدي – سنة 2019
- Raymond Aron (1967).

ريمون آرون .**مراحل الفكر السوسيولوجي** .باريس: غاليمار.

- Jean-Claude Passeron (1968)، و.Jean-Claude Chamboredon ،Pierre Bourdieu

بيير بورديو، جان-كلود شامبوريدون، وجان-كلود باسرون .**حرفة عالم الاجتماع** .لاهاي: موتون.

- Mark J. Miller (2014)، و.Hein de Haas ،Stephen Castles

ستيفن كاستلز، هاين دي هاس، ومارك ج. ميلر .**عصر الهجرة: تحركات السكان الدولية في العالم الحديث** (الطبعة الخامسة). نيويورك: غيلفورد برس.

- Émile Durkheim (1988).

إميل دوركهايم .**قواعد المنهج في علم الاجتماع** نُشر الأصل سنة 1895.

- Abdellah Hammoudi (2000).

عبد الله حمودي .**الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة** .الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

- Boaventura de Sousa Santos (2014).

بوافينتورا دي سوزا سانتوس .**إبستمولوجيات الجنوب: العدالة المعرفية ضد الإبادة المعرفية** .لندن: روتليدج.

- Max Weber (1978).

ماكس فيبر .**الاقتصاد والمجتمع: مدخل إلى علم الاجتماع التفهمي** (نُشر الأصل سنة 1922). بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا.